إلى سماء

(1)

اليوم أحدِّثُكم حديثاً طالما أجَّلتُه، بل، وفررتُ منه فراراً ، وأبُثّكم لواعجَ حرفٍ أسكنتُها روحاً فلم تبقِ لي إلّاها في الحشا ديّارا.

فما قولكم في عاشقٍ يكابدُ حرَّ الجوى، فلا يجدُ منه لواذاً ولا عنه مصرفاً.

عشقٌ ملكَ عليه الحنايا، واستوطنَ منه الرزايا، فما عودُه عنه بالأحمد، وقد تجلّى في ملكوت كينونته وتجسّد.

تتهادى تسابيلُ الهوى كَلِماً أبيناً ، فتتهجّدُ له الأركان.

فما الحرفُ، وان أبان، ب...منصفٍ ، ولا الركنُ، وان استقام، بمعرِّفِ .

والحرفُ العصيُّ يناوئُ ويتمنّعُ أن يفارقَ مراتعَ السَّرائر، غازلاً نسجَ كلماتٍ أبَيْنَ إلّا أن يكنّ بناتاً للحُجُب.

كلماتٍ تختالُ على زُججٍ مُمرّدة، تخطو خطوَ بلقيسَ نحو سُليمانِها، المتسامقُ على عرشِه، وما تباعدَ سليمان، ولكنّ البعدَ كفر.

أما وقد آن أوانُ أن أينعت، وعن جهدِ مغالبَتِها تمنّعت،فما لها إلّا أن تبصرَ نورا كنبتٍ طيّبٍ يهاجرُ من رحم الرّوح إلى فضاءاتِ العلن، وتضوّع عبيرا، كطيبٍ تعتّقَ في قواريرِه، واستحلّ مقامَ الأبدان بعد تصبِّر.

أما وقد انتويتُ البوح، وبمقدّمتي طالَ الشّرح، فعليه وإن الإله شاء، لبياني أجزاء، ولكم أنتم بعد الثناء، الحكمُ على ما يكون، ولا تغلبكم الظّنون، حتى لما جهلتم تبينون، وأعدكم أن يختلفَ السرد، فيضحى هوناً وهذا وعْد، فهل أنتم معي ؟!!، أم عن ما انتويتُ أنتهي؟!!

(2)

كنتُ أقول، يا سادتي العدول :أنَّ من العشقِ ما استعصى على الكَلِم، واستمرأَ إعمالَ الكُلَم، فباتَ طيّاً في الحشا يجول ،وعن لُباباتِ النُّهى يحول، يؤُزُّ مِرجلَ الحرفِ أزَّاً ، فما اسطاعَ له غوثاً ولا رِكزا، حتى غالبَ ما استَعصَمَت ألسنُه، وغافلَ عَسَسَ الكُنَه، وجادَ البيانُ بما قد كان، بعدَ إعتاقِ العَوان، هذا وإنَّني أقول: صلّوا على الرّسول، عليه الصلاة و السلام واسمعوا حتى الثُّمالة، ما جاءَ في هذي المقالة .

(3)

كانت تلك مرَّتي الأولى التى أزورُ فيها مدينةَ القدس بالغةً واعية، بعدَ أن زرتها صغيرةً تتبعُ خطى أباها ممسكةً بيده لا تفارقُها.

كنتُ في سنتي الرَّابعة من كليّة الهندسة التابعة للجامعة الإسلامية، وكانت رحى السِّياسةِ قد أسلمت قيادها للسُّلطة الوطنيّة الفلسطينيّة بعدَ اتفاقِ أوسلو، وعليه، فقد غدا حلمُ زيارةِ الحرمِ القدسيّ ليس ببعيد، بعدَ أن كان منيةً لا تُرام، خاصّةً لأبناء القطاع الغزّي، وسم...عته الضاربة في جهادِ المحتل حد إجبارِه على إلتقامِ أذيالَ خيبتِه، وتسليم الدّفة لمن ينوب.

أذكرُ هذه السَّنةَ الجامعيةَ بالذّات لمساقاتِها الزخمة، المبالغ في صعوبتِها وتكدُّسِها، وكأنّها صفعةُ، الكليّةِ الأخيرةِ وانتقامها الفذ قبل تصديرنا لسوق العمل.

وكانت المكافأة بعدَ لأواءِ عامٍ طويلٍ طويل، وأيّ مكافأة!!

لكم أن تتخيلوا وقعَها على أرواحٍ تعتّقت في محاريبِ الأقصى، وأُشربَ عشقُه في قلوبها.

وبعدَ طولِ منعٍ يأتي الوصلُ كما ينبغي له أن يكون. وصلُ محبوبتِك الذَّهبية القاصية، والتي درجت على تقديمِ قرابينك للحظِ عينيها تبتغي الدَّارَ الآخرةَ وعداً من الله كان عنه مسؤولا.

تخيلوا معي، إن شئتم، أن بُشِّرَ أحدُكم بجنَّة الخلدِ وهو قائمٌ يسعى في حياته الدنيا أي نعم، كنّا كمن بُشِّر بجنته، يكادُ أن يطاولَ الجبالَ أو يخرقَ الأرض، علَّ السماواتِ

والأرضين تسع فرحتَه. فرحةً ملكت علينا الرّوحَ والجوارح، فبتنا نستعدُ لليومِ المشهودِ فجراً. المسافةُ بينَ مدينتي غزّةَ والقدس تقاربُ الثمانين كيلومتراً تعدُّ فيها مسافراً يجري عليك حكمُ المسافر، تَقصرُ فيها الصّلاةُ وتَجمع، وتفطرُ حالَ صيامِك رمضانا.

جهزتُ حقيبةَ سفري، وأذكرُ أنّني حملتُ معي سكيناً، رغمَ تحذيرٍ مسبقٍ بعدم حمل أيَّ معدنٍ معنا، واصطحبتُ آلةَ التصوير، تذّكروها، الخاصة بوالدي، وأوصلني والديّ، كما اعتادا، أرضَ الجامعةِ من بعدِ صلاةَ الفجرِ مباشرةً ، حيثُ تربضُ حافلةٌ انتوت حملنا ...إلى الجنّةِ الذّهبيّة.

(4)

انطلقت حافلةُ الخيرِ بنا مجتازةً أرضَ القطاع الغزيّ مروراً بحاجز (إيرز)، وهو حاجزُ تفتيشٍ صهيونيّ يفصلُ أراضي القطاع عن أراضينا المحتلة في الداخل الفلسطيني، والتي، وتجاوزاً كما اشتُهرَ سياسيّاً، تُعرفُ ب :

1- أراضي ال (67)، الضِّفة الغربيّة المحتل جلُّها والمسلَّم بعضُها تنسيقيّاً لحكومة رام الله، كمثلِ مدن :نابلس،الخليل، أريحا، رام الله، وغيرها

2- أراضي ال (48)، المحتلة منذ النَّكبة والتي من... وقتها إلى زماننا هذا ترزحُ تحت سيطرة الإحتلال الصهيوني، كمثلِ مدن الساحل الفلسطينيّ الأشهر : عكا، يافا، حيفا، وكمدينة القدس، وغيرها من مدننا وقرانا المحتلة .

عندَ حاجزِ التفتيش الصُّهيوني وقفت حافلتُنا لساعاتٍ عدَّة، تعنتاً كعادتهم، وبعدَ ساعاتَ الإنتظارِ المُذلَّة لأهلِ بلادٍ يتنقَّلون فيها، ويرون تنقلَّهم ذاك حقّاً لا يتخلون عنه، رغمَ كلِّ التعقيدات الأمنيَّةِ المدروسة، ورغم عنجهيتهم وصَلَفهم، لازالوا يصِّرون على مدِّ جذورِ وصالِهم مع داخلهم المحتل رغم أنوفهم، ورغم ما يلقون منهم.

أقول: خضعنا لتفتيشٍ معقّد، مررنا من خلاله ببواباتٍ إلكترونية وأجهزةٍ كشف كما في المطارات الكبرى، أعودُ وأقول أنه حاجزُ تفتيشٍ عاديٍّ صغير، كنَّا نراهم من وراءِ جدرهم،

متمترسين خلفَ حصونهم المانعة لاختراق الرّصاص، ويا للمهزلة، يلبسون خوذاتهم ويحملون أسلحتِهم.

بعدَ تجاوزنا للتفتيش الإلكتروني، عمدوا بنا ...إلى التفتيش الذّاتي!!، أي نعم، الدولةُ، الكيان المحتلُ، الأمنيّةُ الأولى عالميّاً، ومن ضمن الأعلى تسليحاً في العالم تفردُ عضلاتِها وتبرهنُ على استحقاقِها لسمعتها.. عند حاجزِ تفتيشٍ صغير.
أذكرُ المجنّدةَ الصُّهيونية والتي بعد أن انتهت من تفتيشي نادتني :(نينجا)، و أذكرُ أنّني قد مددتُ لها لساني هازئةً متحدِّية، ولكن.. ويا للأسف، تذّكرتُ بأنّ نقابي سيحولُ دونَ أن تراهُ يسخرُ من وجودها العابر على أرضي.

(5)
أُكملُ ما انقطعَ فأقول :
حتى إذا ما اجتزنا المخسوم – حاجزَ التفتيشِ – الأول بعد طولِ عناءٍ وانتظار، واحتياطاتٍ أمنيَّةٍ مبالغٍ فيها، انطلقت حافلتُنا تُكملُ بنا رحلتَنا المباركةَ الى جنَّتِنا الذهبيَّة.
كنتُ طوالَ الطريقِ الممتد ألقاً لا أكادُ أحرّكُ ساكناً فيَّ أبدا ، حتى عيناي، أعتبُ عليهما رمشةً تجتاحهما على غفلةٍ منيَّ قسرا.
كمن خضعت أركانُه، وارتُجَّ عليه بيانُه، في محرابٍ يتعبد، قد سلّمَ – من روعاتِ ما يجد – قيادَ أمرِهِ لفؤادِه يلهجُ عشقاً، وقد دارَ بينَه وبين ذرّاتِ كلِّ ما خُلِق حولَه حوارُ وصلٍ طويل، وقد توارت به الحُجُب عن صخب.
ملتزمةً نافذتي، متشبِّثةً بها، ينهلُ كلُّ ما فيّ ممّا حولَه، بل يعبُّهُ عبّا، وإنّني والله – وأنا التى شهدت طبيعة أوروبا سياحةً – ما وجدتُ إلّا جمالاً كما ينبغي للجمالِ أن يكون، الجمالُ البكر ، في صورته الأولى، فلا يبزُّه فيه لا شرقٌ ولا غربٌ أبدا، بل .... وعنه اقتبس .

جمالُ الجلال، وجلالُ الجمال ؛ أشجارٌ ليست كالأشجار ، وكأنّها تنزَّلت توَّاً من علياءِ جِنان، حباتُ رملٍ تكادُ تسمعُ بواعثَ عشقِها قصيداً، ألوانٌ مترعات لم يُجعل لها من قبلُ سميٌ، لم أُحصها عدداً من تنوُّعِها.

أوَ دارَ بينك وبين لونٍ في يومٍ ما حوارٌ بليغٌ طويل؟!!، هذا ما حدث معي ، حواراتٌ تتصل، وعُتبى غياب، ووعودٌ ونذور.
التقطت أنفاسيَّ- وما كدتُ أفعل- في استراحتنا الأولى، متنزَّه فردوسيّ بُنيَ على أنقاضِ قريةٍ عربيّة، فوالله لو مِتُّ بعدها لكان كفايتي من الدنيا وما فيها .. وكفى!
أكملنا طريقنا بعدها، حتى حلَلَنا أريحا – مدينة القمر-، أقدم المدنِ المعمورةِ تاريخيّا على الإطلاق، وأخفض بقعةٍ في العالم عن سطح البحر، أريحا الكنعانيَّة، مدينةُ الجبّارين في الغور من أرض الأردن والشام.
فما أن شارفنا مساكنَ القومِ الذين ظلموا أنفسَهم – البحر الميت هو مكان الخسف بقرى قوم لوط ويقال لها سدوم – ، حتى نكَّستُ منيَّ الرأس ودعوت، وفارقناها مسرعين كما جاء في هديه صلى الله عليه وسلم.

ولانخفاضِ المدينةِ عن سطح البحر متلازمةُ دوارٍ معروفة، غالبناها مغالبةً، حتى وصلنا إلى أطلالِ القصرِ الذي شيَّده الخليفةُ الأُموي هشام بن عبد الملك .
وكما هو الحال مع معظم الخلفاء العرب فقد فضَّلَ الخليفةُ هشام بن عبد الملك حريَّةَ الصحراء على حياة المدينة في العاصمة دمشق.
القصرُ كان عبارة عن مجموعة من الأبنية وأحواض الاستحمام والجوامع والقاعات الكبيرة.
تجوّلنا فيه- أو في أطلاله- ذاكرين اللهَ – مالكَ الملك والملكوت- متدبِّرين.
فسبحان الله أن المالك لشيء من عاريات هذا الوجود من بنى آدم سرعان ما يفقده بالبيع، أو الاستبدال، أو بالهلاك والدمار بمختلف الكوارث، أو بالموت والميراث. وتظل المواريث تنتقل من يد إلى يد إلى قيام الساعة حين يعود كل شيء إلى مالكه الحقيقى وهو الله – سبحانه وتعالي- الذى له ميراث السموات والأرض.